٣

فى العصر العباسى الأول

لعل أول ما يلاحظ من شيوع الشعر فى العصر العباسى الأول على كل لسان أننا نجده يعمُّ لا بين مَنْ أصولهم عربية فحسب ، بل أيضا بين مَنْ أصولهم أجنبية ، بل إن المنحدرين من أصول أجنبية أخذوا يؤلفون جمهوراً كبيراً من ناظميه ، وحاز كثير منهم قصب السبق فيه ، على نحو ما نعرف من أعلامه النابهين أمثال بشار وأبى نواس ومسلم بن الوليد وأبان بن عبد الحميد ، وجميعهم من الفرس ، ومثل أبى العتاهيه وكان من النبط ، ومثل أبى عطاء السنْدىّ وكان هنديا من السند . وكلنا نعرف أن بشاراً كان شعوبيًّا ، فحتى الشعوبيون الذين كانوا يزعمون تفوق الأجانب على العرب اتخذوا الشعر العربى لسانا لهم يعبِّرون به عن أهوائهم ومشاعرهم ، ولم يستطيعوا أن يوهنوا من شعبيته .

وتضافرت عوامل مختلفة على التمكين للطوابع الشعبية فيه . فقد أكبَّ علماء اللغة على شرح الشعر القديم ، واستطاعوا أن يذللوه للشباب ، ولا نبعد إذا قلنا إن شباب الكوفة والبصرة وبغداد — بفضل اللغويين — كان علمهم بالشعر القديم أدق وأوسع من علم معاصريه القدماء الذين كانوا يعرفون أطرافا منه والذين لم يكونوا يقفون على كل أطرافه وقوف الشباب البغدادى والبصرى والكوفى فى العصر ، إذ بسطه لهم اللغويون شرحا وتفسيراً ، كما بسطوه لهم تاريخيًّا ولغويًّا ونقديًّا بسْطا مكَّنهم من تمثله تمثلا رائعًا ، فإذا هم يجيدونه إجادة العرب الخُلَّص ، بل إذا هم يتفوَّقون فيه ويصبحون حملة لواثه . وكان مما ساعد على ذلك بقوة أنه لم يكن هناك أى حجاب بين الشباب وبين التزود على أيدى اللغويين بالشعر القديم ، إذ كانوا يلقون دروسهم بالمساجد ، وكانت حلقاتهم مباحة للجميع ، فكان الشباب يتحلَّق حولهم ويأخذ عنهم كل معارفهم ، وغير بعيد منها كانت تنعقد حلقات المتكلمين والفقهاء والنحاة والعلماء من كل صنف وعلى كل لون .

وهيَّأ ذلك لأن تصبح جميع موارد الثقافة شعبية شعريةً وغير شعرية ، ويوضح

ذلك أننا إذا رجعنا إلى ضرب من ضروب الثقافة العميقه ، وليكن ثقافة المتكلمين ، وخاصة المعتزلة ، وجدنا كثيرين منهم ممن تدور أسماؤهم فى الكتب من ذوى الحِرَف أو بعبارة أخرى من الطبقات الشعبية الدنيا ، مثل واصل الغزّال وأبى الهذيل العلاّف وأبى حفص الحدّاد وأبى أحمد التمّار وأبى شعيب القلاّل وفضل الحذّاء وأبى جعفر الإسكافى وحسين النجّار وهشام الفُوَطىّ. وكل منهم موصوف بما يدل على مهنته ، مما يدل على إقبال عامة الشعب على التثقف بعلم الكلام ، وخاصة بالاعتزال ومسائله العويصة . ويتوقف الجاحظ فى كتاباته أحيانا ليقول : وسألت بعض البحريين من أصحاب الكلام ، أو ليقول : وسألت بعض العطّارين من أصحابنا المعتزلة . وكأن العطارين فى عصره كانوا أقساما ، منهم من يعتنق مذهب الاعتزال ، ومنهم من يعتنق غيره من مذاهب المتكلمين . ولابد أنّ كان على شاكلة العطارين والبحريين بقية التجار وأصحاب الحرف ، فهم جميعا يفدون إلى حلقات المتكلمين ينهلون منها ويعبّون فى المساجد الجامعة كما يشاءون . وكان من أكبر هذه الحلقات بمسجد بغداد الكبير حلقة إبراهيم النظام أستاذ الجاحظ ، وكان يتبعه خلق كثير من أهل بغداد . ويقول الجاحظ : « لولا مكان المتكلمين لهلكت العوام من جميع الأمم ، ولولا مكان المعتزلة لهلكت العوام من جميع النحل». وهو يربط بوضوح بين المتكلمين وثقافتهم لعصره وبين العامة . ويؤكد ذلك أننا نراه فى بعض رسائله ينكر على العامة مناقشتها للملحدين فى آرائهم الإلحادية الفاسدة لعدم إحاطتها بالأدلة التى تنقض تلك الآراء نقضا ، يقول : « ومن البلاء أن كل إنسان من المسلمين يرى أنه متكلم وأنه ليس أحد أحق بمحاجة الملحدين من أحد». وفى ذلك ما يدل على أن كل عامى لعصر الجاحظ كان ينال حظّا من الكلام وأنه كان أحد علوم العامة .

وإنما أطلنا فى بيان ذلك لندل على أن الثقافة حينئذ كانت حظّا شائعا بين جميع أفراد الشعب على اختلاف طبقاته ، وطبيعى أن تدخل فى ذلك ثقافة الشعر ، بل لا شك أن حظ الأفراد منها كان أوسع ، لأنها أكثر اتصالا بعواطف الناس وأهوائهم ، وكانت رواية الشعر حينئذ تشيع فى جميع الأوساط ، إذ كان الناس يتناشدونه دائما ، وتشهد لذلك بيئة المتكلمين ، فقد كان كثير منهم لا يزالون

ينشدونه فى مجالسهم ومحاوراتهم، وفى مقدمتهم بشر بن المعتمر وأبو الهذيل العلاّف والنظّام ، ومن يرجع إلى كتب الجاحظ المتكلم المعتزلى يجدها زاخرة بالأشعار ، حتى إن كتابا له مثل كتاب الحيوان الذى يقع فى سبعة مجلدات لاتكاد تخلو أكثر أوراقه من بعض الأشعار ، وكثيرا ما تتوالى فيه الأبيات صفحات متعاقبة . ومرجع ذلك إلى أن الشعر كان يدور على كل لسان .

وهذا الاتصال الوثيق بين الشعر والشعب هو الذى جعل أكثر شعراء الشعب من أبناء الطبقة العامة العاملة ، ويكفى أن نعرف أن أعلامهم النابهين وهم بشار بن برد وأبو نواس وأبو العتاهية ومسلم بن الوليد وأبو تمام نبتوا جميعا فى الطبقه الدنيا من طبقات الشعب ، فبشار كان أبوه طيّانا يضرب اللَّبِن أو حجارة الطين ويعيش منها معيشة بائسة وكان أخواه : بشر وبشير قصّابين يبيعان اللحم. وكانت أم أبى نواس التى كفلته بعد موت أبيه وقامت على تربيته غازلة للصوف تعيش من كسب يديها ، أما أبو العتاهية فكان أبوه يشتغل بالحجامة ، وكان مضيّقا عليه فى الرزق ، مما جعل ابنه — بمساعدة أخيه زيد — يحترف بيع الجرار والفخّار ، فكان يحملهما على ظهره وينادى عليهما فى شوارع الكوفة ، وتفجر ينبوع الشعر على لسانه ، فكان يأتيه الغلمان والمتأدبون فينشدهم أشعاره ، ويكتبونها على ما يشترونه من فخاره وجِراره . وكان الوليد أبو مسلم حائكاً يعيش فى ضيق وإقلال ، أما أبو تمام فكان أبوه صاحب حانوت عطارة.

وإذا مضينا نبحث فى العلاقة بين الحياة الشعبية للناس وموضوعات الشعر فى العصر العباسى الأول خُيِّل إلينا أن المديح كان بعيداً عن الشعب لا تصاله غالبًا بالطبقة العليا من الخلفاء والوزراء ، ولكن لنحذر التعميم لأسباب كثيرة ، فإن من كانوا يمدحون الوزراء والخلفاء كانوا يرسمون لهم فى مدائحهم مثالية الحاكم كما يريدها الشعب ، وبذلك كانوا يصدرون عن روحه فى مدائحهم ، فمثلا هرون الرشيد حين يمدحه أبو نواس أو أبو العتاهية لا يمدح شخصه من حيث هو ، وإنما يمدح فيه المثل الأعلى للخليفة الكامل كما يتراءى فى مخيلة الجماعة الإسلامية . والمدحة من هذه الناحية تنشح بطوابع شعبية واضحة إذ تصور مُثل الشعب العليا فى الحكم وما ينبغى أن يسوده من العدل الذى لا تصلح حياة الناس ولا تطيب بدونه ، كما تصور مثله العليا فى الخلق الكريم ، وهى مُثل ظل الشعراء يرددونها

فى مديح الخلفاء وغيرهم كى يرويها الكبير وينشأ عليها الصغير ، وكان أبو تمام يحس ذلك إحساسًا واضحا ، فقال :

ولولا خلالٌ سنَّها الشعرُ ما دَرَى ... بُغَاةُ العُلا من أين تُؤْتَى المكارِمُ

والمدحة بذلك لم تكن رياء ولا نفاقًا ولا لغواً من اللغو ، بل كانت تجسيمًا لأداة الحكم الصالح وما ينبغى أن ينحَّى عنه من صور الفساد ، كما كانت تجسيمًا للفضائل التى يريدها الشعب فى حكامه وقادته ، ولذلك دخلت فى تربية الناشئة ، وعُدَّت نبراسًا مضيئًا للشمائل الكريمة ، كما لاحظ أبو تمام . وكانت من حين إلى حين تحمل بعض مطالب الشعب ، ومن خير ما يصور ذلك شكوى مريرة من غلاء الأسعار قدَّمها أبو العتاهية للرشيد فى إحدى مدائحه له ، إذ يقول :

إنى أرى الأسعارَ أسـ ... ـعارَ الرعيَّة غاليَهْ
وأرى المكاسبَ نَزْرَةً ... وأرى الضرورةَ فاشيَهْ
وأرى اليتامى والأرا ... ملَ فى البيوت الخاليَهْ
يشكون مَجْهَدَةً بأصـ ... ـواتٍ ضعافٍ عاليَه
مَنْ يُرْتجَى للنـاس غيـ ... ـرُك للعيون الباكيه
من مُصْبِياتٍ جُوَّع ... تمسى وتُصْبح طاويه
مَنْ للبطون الجائعا ... ت وللجسوم العاريه
يا بنَ الخلائف لا فُقِدْ ... تَ ولا عدمت العافيه
ألقيتُ أخبارًا إلي ... ك من الرعيَّة شافيه

وواضح ما يصور أبو العتاهية فى مدحته من بؤس الطبقة الدنيا فى الشعب إزاء غلاء الأسعار الذى لا يطاق مع نقص المكاسب وقلتها ، ويصور اليتامى والأرامل وحياتهم البائسة وما فيه الأطفال وغير الأطفال من الجوع والعرى والعناء القاسى . ويتوسل إلى الخليفة أن يتخذ الأسباب لهبوط الأسعار ، حتى يجد الجائعُ الغذاء والعارى الكساء والظمآن الماء .

ولم يكن الشعب يفرح بشيء فرحه بانتصارات الدولة وقوادها من الخلفاء وغير الخلفاء على أعدائها من الترك فى أواسط آسيا والروم فى آسيا الصغرى وكان ما يزال ينتظر البشارات بالنصر . وحلّت المدائح حينئذ محل وسائل الإعلام الحديثة ، فهى التى كانت تسجل انتصارات العرب على الأعداء مشيدة بالقواد العظام وبلائهم حتى النصر العظيم ، حاملة أنباء ذلك إلى الشعب الذى كان لا يزال ينتظرها فى شوق ولهفة . ومن أهم المعارك التى تشبت فى عهد الرشيد معاركه مع نَقْفور إمبراطور بيزنطة ، وكانت قد أرغمته الجيوش العربية فى عهد أبيه المهدى أن يؤدى الجزية كل عام ، فلما ولى الرشيد نقض العهد وكتب إليه كتاباً مطالبا برد الجزية التى أداها فى السنين الماضية ، وغضب الرشيد غضبًا شديداً ، وكتب إليه على ظهر كتابه : « بسم الله الرحمن الرحيم . من هرون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم . قد قرأت كتابك يا بن الكافرة والجواب ما تراه دون أن تسمعه . والسلام » . وشخص إليه فى جيش جرار ، اخترق به آسيا الصغرى وغنم مغانم كثيرة . وجزع نقفور وأرسل إليه يعلن الخضوع وأداء الجزية المضروبة . وعاد الرشيد إلى مدينة الرقّة بالموصل ، وسقط ثلج كثيف ، فأمن نقفور من الغزو ، ونقض الصلح بينه وبين الرشيد ، والرشيد لا يعلم ، غير أن صنيع نقفور تسرب إلى الشعب ، فدخل عليه التَّيمىّ الشاعر ، وهو ينشد :

نقضَ الذى أعطاكه نَقْفورُ ... فعليه دائرةُ البَوار تدورُ
نقْفورُ! إنك حين تغْدِر أن نأى ... عنك الإمامُ لجاهلٌ مغرورُ
أظننت حين غدرتَ أنك مفلتٌ ... هَبِلَتْك أمُّك ما ظننتَ غرورُ

وارتفعت أصوات المغنين بالأبيات فى بغداد وغير بغداد ، وتناشدها الناس والجيش ، وزحف الرشيد بجموعه الكثيفة حتى أناخ على مدينة « هرقلة » بآسيا الصغرى ، وفتحها عنوة ، بعد أن سلّط عليها مجانيقه وأحالها خرائب وأطلالا . وذلّ نقفور وألقى الرومُ عن يدٍ وهم صاغرون ، وعاد نقفور إلى أداء الجزية راغمًا . وهلّل الشعب لهذا النصر المبين وهلل معه الشعراء ، وتغنى المغنون ببعض ما نظموه من مثل قول أشجع السُّلَمِىّ :

أمستْ هِرَقْلةُ تهوى من جوانبها ... وناصرُ الله والاسلامِ يرميها

ملكتَها وقتلتَ الناكثين بها ... بِنَصْر من يملك الدنيا وما فيها

وطارت الأنباء بذلك إلى العالم العربى ، طارت بها هاتان القصيدتان وما ماثلهما من مدائح رنّانة . وكل من يتعقب أخبار المعارك الحربية فى العصر ووصفها عند الشعراء فى مدائحهم للقواد من الخلفاء وغير الخلفاء يحس أنهم كانوا يشبهون المراسلين الحربيين فى عصرنا ، فهم يلازمون الجيوش وقوادها ، حتى إذا نشبت معركة سحق فيها العرب أعداءهم ، وصفوا ذلك فى مدائحهم للقادة ، وطارت مدائحهم إلى بغداد وغير بغداد . ولعل شاعراً فى العصر لم يبلغ من ذلك ما بلغه أبو تمام فى تصويره لانتصارات المأمون والمعتصم وقوادهما العظام ، إذ كان يرافق الحملات الحربية ويرى الوقائع تحت بصره ، وما يذيق جنود العرب البواسل الأعداء من دمار . وكان أول ما سجله من ذلك معارك المأمون مع تيوفيل إمبراطور الروم وما أخذ ينزله به وبجموعه من هزائم ماحقه . حتى إذا ولى المعتصم بعده الخلافة لزم قواده فى حروبهم مع بابك بأذربيجان ، وشاهد — وصوّر — ما أنزلوه به من ضربات قاصمة ، حتى وقع أسيراً ، وقُتل وصلب ببغداد نكالا له وعقاباً . وكان تيوفيل إمبراطور الروم قد انتهز انشغال جيوش الدولة فى القضاء على بابك ، وأغار على مدينة « زِبطرة » من ثغور الجزيرة على الحدود بين الروم والعرب ، ورماها بالمجانيق وخرّبها ، وسفك دماء كثير من أهلها ، وسبى كثيرات من نسائها ، فضجّ العرب فى الأمصار ، واستصرخوا الدولة فى المساجد ، وبلغ نبأ الكارثة الخطيرة المعتصم ، كما بلغه أن امرأة من الأسيرات كانت تصيح وهم يجرّونها فى الأغلال : وامعتصماه وا إسلاماه ! فصاح وهو بقصره : لبّيْكِ . وأمر توًّا بالنفير إلى الحرب ، وأخذ فى إعداد جيشه بالسلاح والمئونة ، وركب فرسه فى مقدمته ، وتبعه المراسلون الحربيون من الشعراء وفى مقدمتهم أبو تمام ، وكان قد سأل مَنْ حوله أى بلاد الروم أكبر وأمنع ؟ فقالوا له عمورية — وكانت تقع إلى الجنوب الغربى من أنقرة — فأمر بنقش اسمها على الترس والألوية . وتنبّأ بعض المنجمين بإخفاق الحملة ، فرمى بتنبؤهم عُرْض الحائط ، ومضى بجيشه مسرعاً ، وألقى بجموعه على أنقرة فأصبحت أطلالا عافية . وتحول إلى عمورية ، فحاصرها خمسة عشر يوما

يرميها بالمجانيق حتى احترقت وهوت أسوارها ، ومزق الجيش الفاتح جنودها ، وبلغ عدد قتلاها تسعين ألفا ، غير عشرات الألوف من أسراها الذين وُضعت فى أيديهم وأرجلهم القيود والأغلال ، وغير الألوف من السبايا . وجلجل أبو تمام بصوته القوى جلجلة دوّت فى أسماع العالم العربى ، منشداً قصيدته ، بل ملحمته الرائعة :

السيف أصدقُ أنباءً من الكُتُبِ فى حَدِّهِ الحَدُّ بين الجِدِّ واللَّعبِ

وهو يشير فى مطلعها إلى نبوءة المنجمين وكذبها قائلا إن القوة فوق الكتب أو فوق العقل ، فهى سناد الشعوب وعمادها ، ويمضى فيصور الانتصار العظيم فى عمورية ، مجسداً ما شبَّ فيها من حريق تعالت نيرانه وترامت فى الآفاق حتى كأن الدجى رغب عن لون ردائه الأسود ، بل لا تزال الشمس طالعة ساطعة ، فلم يعد هناك ليل ، بل اتصل النهار بضحاه . ويصور فرحة الجيش بالنصر ، ويقول إن عمورية وما لطخها من رماد الحريق الأسود ولطَّخ وجهها من بُقعه أجمل فى عيون الجنود الظافرين من مَيَّة ورَبْعها ورُباه المزهرة فى عين عاشقها الولهان ذى الرمة . ويجسِّد صلابة الجيش العربى ومضاءه وقوته التى لا تُقْهَرُ تصويراً منقطع النظير ، ويقرن النصر فى معركة عمورية إلى النصر فى معركة بدر المشهورة التى كانت عزًّا للإسلام ومجداً ما بعده مجد ، قائلا للمعتصم :

فبين أيامك اللّاتى نُصِرْتَ بها وبين أيام بَدْرٍ أقربُ النَّسَبِ

وذاعت القصيدة فى كل مكان . وضمها كل عربى إلى صدره ، ولا يزال الشباب العربى إلى اليوم يضمها إلى صدوره كأنها تميمة أو تعويذة سحرية .

وظلت المدحة فى العصر تُستغلُّ فى الخصومات السياسية بين الشيعة خاصة والدولة أو الجماعة ، فقد أكثر العلويون من الثورات على العباسيين ، ووقف معهم غير شاعر ، وأحسَّ الخلفاء العباسيون بحاجتهم إلى من يدعون لهم عند الرعية وانحاز لهم ضد العلويين كثير من الشعراء ، وقاموا لهم بدعاية سياسية واسعة ، مصورين فيهم العدالة والتقوى والذود عن حمى الوطن ، ومضوا يكررون لهم أنهم أولياء الخلافة الأقربون وورثتها الشرعيون ، ورثوها عن الرسول صلى الله عليه وسلم عن طريق عمه العباس بن عبد المطلب ، والعم مقدم حسب حكم الشريعة على

الأسباط فى الوراثة ، والأسباط أبناء البنت ، مشيرين إلى أن العلويين يدّعون وراثتها عن طريق أمهم السيدة فاطمة الزهراء . وهم إنما كانوا يقولون كما مر بنا بأن الرسول أوصى بالخلافة إلى جدهم على بن أبى طالب ابن عمه ، إذ قال إنه منه بمنزلة هرون من موسى . وإنما نذكر ذلك لنشير إلى أن الشعر دائماً كان يشارك فى حياة الشعب السياسية العامة .

ولم يكن الهجاء أقل تمثيلا لحياة الشعب من المديح ، إذ هو فى حقيقته تصوير لمثالب المجتمع وما بأفراده من خصال ذميمة وما بحكامه وحكمهم من انحراف عن الجادة ، ويلقانا هجاء كثير للحكام يريد الشعراء أن يعدلوا بهم إلى النهج القويم فى السلوك وفى السياسة والحكم ، وكان المهدى أول خليفة عباسى فتح قصره للمغنين ، واستاء كثير من أفراد الشعب لذلك ، فانبرى بشار يقول :

ضاعتْ خلافتُكم يا قومُ فالتمسوا خليفةَ الله بين الزِّقِّ والعودِ

وكان بشار نفسه معوجَّ الخلق يعيش للخمر والإثم ، وكأنه فى البيت لا يصور غضبه وإنما يصور غضب الشعب . حين فتح المهدى قصره للمغنين ، وبالغ وتجاوز الحد حين ادعى على المهدى أنه يشرب الخمر ويعاقرها . ولعل العصر لم يعرف شاعراً عاش يهجو الخلفاء ، كما عرف فى دعبل الشاعر الشيعى المعروف ، وله فيهم أهاج مرة ، تعبر أقوى تعبير عن سخط الشيعة . وبجانب هذا الهجاء السياسى كان هناك هجاء فردى كثير ، اتخذ صورة شعبية من مقطعات قصيرة كان يَرِيشها الشعراء وكأنها سهام مصمية ، وكانت سريعة الانتشار على ألسنة الناس ، يتداولونها فى شوارع بغداد والبصرة والكوفة . وكثيراً ما احتدم الهجاء حينئذ بين الشعراء على نحو ما احتدم بين بشار وحماد عجرد ، فكان الصبية والناس لا يزالون ينتظرون ما يحدثان ، ليترنموا به طويلا وليرددوه على ألسنتهم من مثل قول حماد فى بشار ، وكان ضريرا :

وأعمَى يشبه القِرْدَ إذا ما عَمِيَ القِرْدُ
دَنِيءٌ لم يَرُحْ يَوْمًا إلى مَجْدٍ ولم يَغْدُ
ولم يُخْشَ له دمٌ ولم يُرْجَ له حَمْدُ

ويقال إن بشاراً حين سمع الأبيات بكى من شدة إيلامها لنفسه ، ولأنها شاعت على كل لسان ، وواضح ما بها من وصفه بالدناءة والهوان والصغار . ويُرْوَى أن الأمور فسدت بين أبي العتاهية وسَلْم الخاسر الذى اشتهر بكثرة ما صبَّ الخلفاء والوزراء فى حجره من أموال لمدائحه فيهم ، وأتاه أبو العتاهية من هذا الجانب ، فقال فيه ساخراً مشيراً إلى وقوفه الدائم على أبواب الخلفاء والحكام :

تعالى الله يا سَلْمَ بنَ عمرٍو أذلّ الحِرْصُ أعناقَ الرجالِ

وسار البيت فى الشعب مسير الأمثال ، حتى أنّ منه سلم وبكى بدموع غزار . وأتى أبو العتاهية باب أحمد بن يوسف رئيس ديوان الرسائل لعهد المأمون ، فحُجب عنه ولم يلقه ، فتولىّ أبو العتاهية غاضباً غضباً شديداً ، ولم يلبث أن قال فيه :

متى يظفرُ الغادى عليك بحاجةٍ ونِصْفُك محجوبٌ ونصفُك نائمُ

فسار البيت فى الآفاق — كما يقول الرواة — وجعل الناس يتناشدونه ويتداولونه ، مما جعل أحمد بن يوسف يستقدمه ويعتذر إليه ملحًّا فى الاعتذار ، حتى صفح عنه . ويدل بوضوح على شيوع الهجاء فى الشعب حينئذ وسرعة انتشاره ما يُرْوَى من أن أبان بن عبد الحميد الشاعر المشهور كان يجاور شخصا من ثقيف يسمى محمد بن خالد ، كان شديد العداء له والإيذاء ، فتصادف أن تزوج فتاة من ثقيف تسمى عَمَّارة بنت عبد الوهاب ، كانت على جانب من الجمال والثراء ، فانتهز أبان الفرصة للفرقة بينها وبينه ، وأخذ ينظم مقطوعة يصف فيها عُرْسها ، ويسخر متعجبًا من رضا هذه الزوجة سيئة الطالع بهذا الزوج القبيح البخيل ، مصوراً بذلك ما ينتظرها من بؤس وتعاسة ، يقول :

لما رأيت البَزَّ والشَّـــارَهْ والفَرْشَ قد ضاقتْ به الحارَهْ
واللَّوْزَ والسُّكَّر يُرْمَى بهِ من فوق ذى الدَّار وذى الدَّارَهْ
وأحضروا المُلْهين لم يتركوا طَبْلاً ولا صاحبَ زَمَّارَهْ
قلت لماذا ؟ قيل : أعجوبةٌ محمـــدٌ زُوِّجَ عَمَّارَه
لا عمَّر اللهُ بهـــا بَيْتَهُ ولا رأتْه مُـــدْرِكًا ثارَهْ

ماذا رأت فيه ؟ وماذا رجَتْ ؟ وهْيَ من النسْوَان مختارَه
أسودُ كالسَّفُّود يُنْمَى لدى الـ ـتَّنُّور بل مِحْـــراك قَيَّاره
يُجْرِى على أولاده خمسةً أرغفةً كالرِّيش طيَّـــاره
وأهله فى الأرض من خوفه – إن أفرطوا فى الأكل – سَيَّاره

والسفود : حديدة يُشْوَى بها . والتنور : الكانون . والقيارة : صاحبة القار وهو القطران . وشاعت المقطوعة ودارت على ألسنة الصغار والكبار وسمعتها الزوجة ، فندبت حظها العاثر وولولت وفرَّت على وجهها من بيت الزوجية إلى غير مآب .

وعلى نحو ما كان الهجاء والمديح يتصلان بروح الشعب وتدور أشعارهما على الألسنة كذلك كان الرثاء وخاصة حين يُفَجع الشعب فى بطل من أبطاله ، ويصوِّر ذلك من بعض الوجوه مقتل قائد من قواده العظام ، هو محمد بن حميد الطوسى ، فى المعارك العنيفة التى خاضها مع بابك الخرَّمى لسنة ٢١٤ للهجرة . وقد نصب له الشعب ، حين علم بمصرعه ، المآتم فى كل مكان . وتهول الكارثة — كما هالت أفراد الشعب — أبا تمام ، وتملأ قلبه حزنا ممضًّا ، فيغمس طرف ردائه فى مداد شديد السواد ، ويلطّخ به وجهه وجْداً ولوعة على البطل العربى ، ويرثيه بمرثيته الرائعة التى دارت على كل لسان ، وفيها يهتف بمثل قوله :

فتًى ماتَ بين الطَّعْنِ والضَّرْبِ ميتةً تقوم مقام النَّصْر إذ فاته النَّصْرُ
وما مات حتى مات مَضْرب سيفهِ من الضَّرْب واعتلَّتْ عليه القَنا السُّمْرُ
فأثبتَ فى مستنقع الموتِ رجْلهُ وقال لها : من تحت أخْمَصكِ الحَشْرُ
مضى طاهرَ الأثوابِ لم تبق روضةٌ غداة ثوَى إلا اشتهتْ أنها قبْرُ

وهو ليس رثاء ، بل هو تمجيد لا يدانيه تمجيد فى رثاء الأبطال الذين يضحون بأرواحهم فداء لشعبهم ، وابنُ حميد بذلك لم تصبه هزيمة ، فقد أقدم فى الحرب إقداما لا يماثله إقدام ، وفتَك بالأعداء فتكا لا يماثله فتك ، حتى تقصفت السيوف والرماح فى يديه ، وهو ثابت كالطود فى مستنقع من مستنقعات الموت الزؤام . وهى بطولة لا تلحقها بطولة ، حتى لتتمنى كل روضة عبقة لو أنها ضمَّت فى

حَشاها جثمانه الطاهر . وطارت القصيدة كل مطار ، حتى إذا قدم أبو تمام بغداد ولقى القائد المشهور أبادُلَف نوَّه له طويلا بمرثيته تلك قائلا له : « لم يمت مَنْ رُثِىَ بمثل هذا الشعر » . وكان جزاء وفاقا لأبى تمام حين توفى بالموصل أن يبنى له أبناء الشهيد وأهله قُبَّةً بعد وفاته تخليداً لذكره ، فقد حفر لشهيدهم فى ذاكرة العرب تمثالا خالداً لبطولته ، وجعلهم لا ينسون اسمه مهما دارت الحقب والأيام . ومن المراثى التى كانت شديدة الدوران على الألسنة مراثى الشيعة لأئمتهم المقتولين وكانوا ماينون يرثون الحسين وكل من قتلهم الأمويون والعباسيون ، إذ دائماً كانت تعلو — وخاصة فى أوساط الشيعة — الأصوات بالنحيب والنشيج وببعض أبيات ينظمها هذا الشاعر الشيعى أو ذاك ، من مثل قول السيد الحميرى فى بكاء الحسين :

ابْكِ المطهَّــــــر للمطهَّـــرِ والمطهَّـــــرة النقيَّه

كبُكاء مُعْـــولةٍ أتتْ يومًا لواحـــــدها المنيَّهْ

وأكثر شعراء الشيعة مراثى لآل البيت فى العصر دِعْبل ، ومراثيه تذيب القلوب حسرات ، وأروعها تائيته التى طبَّقت الآفاق والتى لا يزال الشيعة يروونها وينشدون كثيراً من أبياتها إلى اليوم ، وهو يفتتحها بقوله الدائر على جميع الألسنة :

مدارسُ آياتٍ خَلتْ من تلاوةٍ ومنزلُ وَحْيٍ مقفرُ العَرَصاتِ

والمدارس : الأماكن التى يُدْرَسُ فيها القرآن الكريم . وهذه المدارس عُطِّلت — فى رأى دعبل — كما عُطِّل منزل الوحى النبوى . واستمر يتحدث عن دور العلويين فى مكة والمدينة ، ذاكراً أنها خلت منهم ومن نسكهم وعباداتهم ، ويلوِّح بحقهم المغتصب فى الخلافة قائلا :

همُ أهلُ ميراثِ النبيِّ إذا اعتزَوْا وهم خيرُ قاداتٍ وخيْرُ حُمَاةِ

ويذكر من استشهدوا منهم فى سبيل المطالبة بحقهم ناصباً أمام الأعين قبورهم فى الكوفة والمدينة وكربلاء ، باكيًا لهم ، ذارفًا دموعًا غزاراً ، مصوراً ميراثهم للرسول ، وكيف حُرموا من إمامة المسلمين ، مؤملاً منهم فى إمام يثور على العباسيين ويستولى منهم على مقاليد الحكم ، ويوجِّه فى أثناء ذلك الحديث إلى لائميه فى تشيعه :

ملامَك فى أهل النبىِّ فإنهم | أحِبَّاىَ ما عاشوا وأهلُ ثقاتى
فيارِبِّ زِدْنى من يقينى بَصيرةً | وزِدْ حبَّهم ياربِّ فى حسناتى

والمرثية نواح مؤثر على الحسين وقتلى العلويين ، وهى تفتح أبواب الأمل أمام الشيعة فى انتظار مهديهم المنتظر الذى يملأ الأرض عدلا ، بعد أن مُلئت ، فى رأيهم ورأى دعبل ، جَوْرًا وظلمًا . ولدعبل وراء ذلك مراث للحسين من أهمها قصيدته العينية التى يصور فيها مقتله وفصل رأسه عن جثمانه الطاهر ، يقول :

رأسُ ابنِ بنتِ محمدٍ ووصيِّه | ياللرِّجال على قناةٍ تُرْفَعُ
والمسلمون بمنظرٍ وبمسمعٍ | لاجازعٌ من ذا ولا متخشِّعُ
ما روضةٌ إلا تمنَّتْ أنَّها | لك مَضْجعٌ ولخطٍّ قبرك مَوْضِع

ووصىُّ الرسول على بن أبى طالب ، والشيعة تعتقد أن الرسول صلى الله عليه وسلم أوصى له بالخلافة كما أسلفنا . ويكثر عند دعبل مثل هذا النواح والبكاء على الحسين وغيره من أئمة الشيعة المقتولين ، وهو فيها يصور الانطباعات الشعبية للحادث عند الشيعة . وتصادف أن توفى إمامه الشيعى على الرضا بطوس ودُفن فيها بجانب قبر الرشيد هناك ، فإذا به يقول :

قبران فى طوسَ : خيرِ الناسِ كلِّهِم | وقبرُ شَرِّهِم ، هذا من العِبَرِ
ما ينفع الرِّجْسَ من قرب الزكىِّ وما | على الزَّكِىِّ بقرب الرِّجْسِ من ضرر

ولم يكن الرشيد رجسا كما يقول ، بل كان طهراً خالصًا ، فقد كان يحج عامًا ويغزو عامًا وأنزل بإمبراطور بيزنطة وجيوشه الرومية هزائم ساحقة . والمهم أن البيتين شاعا فى البيئة الشيعية التى كانت تعمل على نشر أشعار دعبل وأمثاله ، ممن يعنفون فى مراثيهم — فضلا عن أهاجيهم — بالعباسيين ، ليملأوا قلوب الناس عليهم غيظًا وحنقًا ، حتى يثوروا بهم ثورة عنيفة .

ولعل أهم موضوع كان يشيع شعره على ألسنة أفراد الشعب عامة هو الغزل ، فقد كان الناس جميعا يقبلون عليه فى ابتهاج ، لأنه يغذى أرواحهم بغذائه الإنسانى الخالد ، وكان منه الصريح الذى ازدادت صراحته عما ألفنا فى شعر المكيين والمدنيين

فى العصر الأموى ، وكان منه العفيف الذى لا يعرف العبث واللهو ، وإنما يعرف العذاب والألم . وكان الصريح أكثر شيوعًا من العفيف وعملت فى ذلك عوامل مختلفة ، فقد كان أكثر الشعراء من الموالى ، وكانت المرأة موضوع الحب عادة من الجوارى اللائى تمتلىء بهن دور النخاسين ، فلم يحس الشعراء أمامها بصعاب ولا عقاب ، ولم تكن تحيط نفسها بضرب من الوقار والكرامة ، بل كانت تتهالك على الرجال ، مما جعل الشعراء يفصحون فى أحيان كثيرة عن حبهم المادى الجسدى وغرائزهم النوعية التى يشتركون فيها مع الحيوانات .

ويخيل إلى الإنسان كأن الناس فى هذا العصر إنما كانوا يعيشون للغزل والحب ، يتقدمهم فى ذلك الشعراء ، فهم جميعاً يحبُّون ولكل منهم محبوبته أو محبوباته اللائى ينظم فيهن أشعاره الغزلية . وكان كل ما ينظمه شاعر واله بإحدى الجوارى يصبح حديث الناس جميعا . ويفيض كتاب الأغانى بأخبار هؤلاء الشعراء ومعشوقاتهم ، وكثيراً ما يفتح فصولا للحديث عن شاعر ومحبوبته وأشعاره فيها وأخبارهما التى كان يتداولها الناس ، من ذلك الفصل الخاص الذى فتحه لبشار بن بُرْد وصاحبته عَبْدة ، وفيها يقول هذه الأبيات التى كانت تجرى على كل لسان :

لم يَطُلْ ليلى ولكن لم أَنَمْ ... ونَفَى عنى الكرَى طيْفٌ ألَمّْ
وإذا قلتُ لها جودى لنا ... خرجتْ بالصمت عن لا ونعم
نفْسى يا « عَبْدَ » عنى واعلمى ... أننى يا « عَبْدَ » من لحم ودم
إنَّ فى بُرْدَىَّ جِسْماً ناحلاً ... لو توكَّأْتِ عليه لا نْهَدَمْ

ويفتح كتاب الأغانى فصلا لأبى نواس مع محبوبته جنان جارية الثقفيين ، وكان قد رآها ، فكلف بها كلفًا شديداً ، وعرفت حبه ، ولكنها رفضته ، فكان كلما نظم فيها مقطوعة ازدادت به ضيقًا وبرمًا ، وهو يزداد بها غرامًا وهيامًا ، ورآها يوما تندب فى مأتم وتلطم خدَّيها ، فقال توًّا :

ياقمرا أبـــــرزه مأتمٌ ... يندب شَجْواً بين أترابِ
يبكى فيُذْرى الدُّرَّ من نرجسٍ ... ويلطم الوردَ بِعُنَّـــــابِ
لا تبْكِ مَيْتاً حَلَّ فى حُفْرةٍ ... وابْكِ قتيلا لك بالبابِ

وعبثا حنَّت عليه أو التفتت إليه مع كثرة ما نظم فيها من مقطوعات تغنَّى فيها المغنون ورواها أبو الفرج فى كتابه ، وكأنها كانت تزدريه لما يندفع فيه من عبث ولهو ، وله فيها البيت الغزلى المشهور الذى كان يدور على الأفواه لعصره :

يزيدك وَجْهُها حُسْـــنًا إذا مـــا زِدْته نَظَـــرَا

فكلما تأمل وجهها المتأمل تولَّد له جمال جديد أكثر فتنة وروعة . ويابؤس أبى نواس فى حبه ، فقد جشمته جنان الأهوال دون أن ينال منها نظرة أو شيئاً من الاهتمام . ويتحدث كتاب الأغانى أحاديث طويلة عن حب أبى العتاهية لعتبة وكانت تزدريه ، كما كانت تزدرى جنان أبا نواس ، وهو لا يكفُّ عن غزله بها ، وهى تعلِّمه كيف يحتمل الآلام ، وكيف يتجرَّع مرارة الهجر ، غير حاسبة له حسابًا ، وفيها يقول :

كأنها من حســـنها دُرَّةٌ أخرجها اليَمُّ إلى السَّاحلِ
كأن فى فِيها وفى طَرْفها سواحراً أقبلْن من بابلِ
لم يُبْق منى حبُّها ما خلا حُشَاشَةً فى بدنٍ ناحلِ
يا مَنْ رأى قبلى قتيلا بكى من شِدَّة الوَجْد على القاتل

ويكثر فى غزله بها من الشكوى منها وأنها تسرقه ولا ترد عليه قلبه ، وهو المحب الواله الذى يحترق كبده كمداً . ولا يزال يحيطها بالاستعطاف والتضرع ، وهى لا تعنى به ولا تكترث ، وغزلياته بها تملأ نوادى بغداد ويغنى فيها المغنون ، فتزيدها إحجاما عن لقائه . واشتهرت حينئذ فى بغداد قصة ربيعة الرقى وحبه لجارية كانت تسمى « داح » وغزله فيها يطير عن الأفواه طيرانا لخفته وسهولته ، وهو يصور فيه حبه لها وهيامه بها وكيف كانت تأسر قلبه وتخلب لبه ، على نحو ما نرى فى قوله :

أنـــا واللهِ قتيـــلٌ لكِ من غيـــر جِراحِ
أنت للنـــامِ قَتُولٌ بالهـــوى لا بالسِّلاح
وبِشـــكْلٍ وبِـــدَلٌ وبحســـنٍ ومُـــزَاح
ليتنى كنت حَمَـــاما لكِ مقصوصَ الجَناحِ

ودار هذا الغزل لربيعة وما يماثله على كل لسان ، واستقدمه المهدى من بلدته « الرَّقَّة » بالموصل ، ويقال إن جواريه هن اللائى دفعنه ليحضره إلى بغداد حتى يستمعن منه إلى غزلياته . وهو خبر يحمل فى طياته مايصور — من بعض الوجوه — كيف كان الغزل الذى ينظم بعيداً عن بغداد لا فى البصرة والكوفة فحسب ، بل أيضاً فى الرقة وغيرها ، يُحْمل إليها ويشيع على الألسنة . ولعل أهم حب بين اثنين شغل البغداديين فى العصر هو حب العباس بن الأحنف وفوز جارية محمد بن المنصور بن زياد الملقب بفنّى العسكر لشجاعته وشدة بأسه فى القتال ، وهو حب فنّى طاهر يذكرنا بحب العذريين فى العصر الأموى . وكانت فوز أديبة رقيقة الحاشية تروى كثيراً من أشعار العرب وأخبارهم ، وكان محمد بن المنصور يرعى الأدباء والشعراء ويستقبلهم بداره فى مجالسه ، وكان يتلطف لهم أحياناً فيحضر فوزا جاريته الأديبة ودرته الفريدة ، لتتحدث إليهم وتستمع بعض أحاديثهم ، ورآها العباس بن الأحنف فى إحدى زياراته لفنّى العسكر واستمع إلى حديثها العذب فوقعت فى قلبه ، وأخذ ينظم فيها غزلا كثيراً مكنّيا عنها باسم « ظلوم » . وحدث أن زار فنّى العسكر يوما ، ودخلت المجلس فوز ، فخفق قلبه خفقانا سريعا . ولم تحيّه حين جلست خفرا واستحياءً . ودار الحديث ، وسأل فنّى العسكر العباس عن محبوبته ظلوم وشعره فيها ، طالباً أن ينشده بعض ما نظمه ، فأنشد :

قالتْ ظلومُ سَمِيَّةُ الظُّلْم مالى رأيتُك ناحلَ الجسْمِ
يا مَنْ رَمَى قلبي فأقْصَده أنت العليمُ بموقع السَّهْمِ

وأظهر فنّى العسكر استحسانه ، وسأله ألا ترقّ لك ؟ وأجابه إنها ترغب عنى ولا تصلنى ، وحتى إذا رأتنى انصرفت عنى لا تُحَيِّينى ، وأنشد :

واللهِ لو أن القلوبَ كقلبها مارقَّ للولد الضعيف الوالِدُ

فقال له فنّى العسكر : تُرَى من هى هذه التى سلبتك قلبك وخلبت لُبَّك ، وما مقدار حسنها الذى فتنك وكلفك من الجهد ما تطيق وما لا تطيق ، صفها لنا وأوجز ، فقال على البديهة :

لقد مُلئتْ ماءَ الشباب كأنها قضيب من الرَّيحان ريَّانُ أخْضَرُ

وتضرَّج وجه فَوْز بالخجل ، ولم يفطن فتى العسكر ، وقال له : مسكين ياعباس ما أبأسك ؟ ولو عرفتها لكلمتها فى أمرك ومن يدرى ؟ ربما كانت تبادلك نفس الحب ، وتصدُّ عنك عتابا لاملالا كما تظن ، فأنشد :

لو كنتِ عاتبةً لسكَّن رَوْعتى أملى رضاكِ وزرتُ غيرَ مراقبِ
لكن مَلِلْتِ فلم تكن لىَ حيلةٌ صَدُّ الملولِ خلافُ صدِّ العاتب

وكانت فوز شاعرة ، وتنبهت إلى غرض العباس ، وعرفت أنه يوجّه إليها البيتين ، فقالت له ضاحكة : ظُنَّ خيراً يا عباس ! فربما كانت لا تستطيع أن تلقاك لما عليها من الحرس والرقباء ، فقال على الفور :

تمنَّى رجالٌ ما أحبُّوا وإنما تمنيتُ أن أشكو إليها وتسمعا
أرى كلَّ معشوقين غيرى وغيرها قد استعذبا طولَ الهوى وتمتَّعا

فقالت أبلغك الله أمنيتك يا عباس ، وكانت بعد ذلك تكاتبه وتراسله . وطارت القصة فى بغداد وتناقلتها المجالس والندوات ، وتغنى المغنون والمغنيات فى أشعار العباس وصبابته بفوز ، إذ كان لا يزال يغدو إليهم ويروح بأشعار تصور هذا الحب الذى اندلعت نيرانه فى قلبه ، والذى كتب فيه ديوانًا ضخمًا ، كله شوق وصبابة وهيام وضَنًى وسقم وعذاب من مثل قوله :

يا سقيمَ الجسم من مِحَنِه مفـــردًا يبكى عـــلى شجَنِه
كلما جَـــدَّ البكاءُ بـــهِ دَبَّتِ الأسقامُ فى بَدَنِه

وأفرد القصاص نفراً من هؤلاء الشعراء العشاق بالكتابة عن أخبارهم ووقائع حبهم وأشعارهم فى كتب مستقلة ، لتجد العامة فى ذلك بعض ما تبغى من اللهو والتسلية . وخير مثل لذلك على بن أديم الكوفى ، وكان يحب جارية منذ نعومة أظفارها تسمى « مَنْهلة » وشبَّت ، فباعها مواليها لبعض الهاشميين ، فجُنَّ جنونه ، وبكاها بكاء متصلا متلهفًا عليها ملتاعًا بمثل قوله :

صاحوا : الرحيلُ وحنَّى صَحْبِي   قالوا : الرَّواحُ فطيَّرو لُبِّى
لا صَبْرَ لى عند الفِراق على   فَقْدِ الحبيب ولوعة الحُبُّ

ويقول أبو الفرج فى كتابه الأغانى : « له حديث طويل مع منهلة فى كتاب مفرد مشهور صنعه أهل الكوفة لهما ، فيه ذكر قصصهما وقتاً وقتاً وما قال فى منهلة من الأشعار ، وأمرهما متعالَم عند العامة » .

وكان من أهم ما عمل على شيوع أشعار الغزل والحب على ألسنة الناس تغنى المغنين والمغنيات بها ، وقد ازدهر الغناء حينئذ ازدهاراً لم يعرفه أى عصر من عصورنا القديمة ، إذ تولعت به جميع طبقات الشعب ، يتقدمهم الخلفاء منذ المهدى . كما مر بنا . ونرى هرون الرشيد يجعل المغنين فى مراتب وطبقات على نحو ما جعلهم الملك الفارسى القديم أردشير بن بابك ، وقد أمر إبراهيم الموصلى وإسماعيل بن جامع وفُلَيْح بن أبى العَوْراء ، أكبر المغنين فى عصره ، أن يختاروا له الأصوات أو الأغانى المائة التى أدار أبو الفرج الأصبهانى كتابه « الأغانى » عليها . وتحوَّل الخليفة الأمين بقصره إلى ما يشبه مقصفاً كبيراً للغناء والموسيقى والرقص . وكان المأمون فى أول خلافته منصرفاً عن السماع والغناء ثم أقبل عليه . وكان المعتصم كلفاً بالسماع ، ومثله ابنه الخليفة الواثق وكان يحسن الغناء والضرب على الآلات الموسيقية ، وله أغان دوَّنها أبو الفرج فى كتابه . وكان أبناء الخلفاء من الأمراء مثل آبائهم يقبلون على الغناء وعَقْد الحفلات له ، واشتهر إبراهيم بن المهدى وأخته عُلَيَّة بإتقانهما الغناء وبكثرة ما خلَّفا فيه من أغان بديعة أحصى منها أبو الفرج طائفة كبيرة فى أغانيه . وكان القواد والوزراء وكبار رجال الدولة وعلية القوم يقبلون على تعلم الغناء والموسيقى ، وترك نفر منهم أغانى مشهورة دوَّنها أبو الفرج على نحو ما نرى فى ترجمته لأبى دُلَف قائد المأمون وعبد الله بن طاهر واليه على مصر ثم على خراسان .

ويمتلئ كتاب الأغانى بتراجم المغنين النابهين فى العصر العباسى الأول وما غنَّوا من أصوات أو أغان ، وهم يُعدّون فيه بالعشرات وفى مقدمتهم إبراهيم الموصلى ويقال إنه خلَّف تسعمائة صوت أو أغنية وقد سجل منها أبو الفرج مجموعة كبيرة

فى ترجمته له بأغانيه ، وهى عنده ضربان : ضرب اشترك فيه مع بعض المغنين قبله ، وضرب ابتدأه ابتداء ، فمن الضرب الأول :

ويا هَجْرَ ليلى قد بلغتَ بىَ المَدَى ... وزدتَ على ما ليس يبلغه الهَجْرُ
هجرتكِ حتى قيل لا يعرف الهوى ... وزُرْتُكِ حتى قيل ليس له صَبْرُ
لقد تركتْنى أحسدُ الوحش أن أرى ... أليفين منها لا يروعهما الذُّعْرُ
فيا حُبَّها زِدْنِى جَوًى كلَّ ليلةٍ ... ويا سلوةَ الأيام موعدُكِ الحَشْرُ

والشعر لأبى صخر الهذلى البدوى تغنَّى فيه أولا معبد وابن سُرَيْج فى العصر الأموى ، وهما كبيرا المغنين فى المدينة ومكة ، ثم تغنَّى فيه فى هذا العصر إبراهيم الموصلى والهشامى والخليفة الواثق وعَريب . ومن هذا الضرب :

وإنَّك واطِّراحَك وَصْلَ سُعْدَى ... لأخرى فى مودَّتها نُكوبُ
كشاقبةٍ لِحَلْبٍ مستعارٍ ... بأُذْنَيْها فشانَهما الثُّقوبُ
فردَّتْ حَلْبَ جارتها إليها ... وقد بقيتْ بِأُذْنَيْها ندوبُ

والندوب : آثار الجروح . والشعر لابن هَرْمة المدنى ، وفيه تغنى أولا الغَريض مغنى مكة المشهور فى عصر بنى أمية كما تغنى فيه معاصره الهذلى ، ثم تغنى فيه فى هذا العصر إبراهيم الموصلى وابن جامع المغنى المشهور . ومن هذا الضرب :

ألا ياصَبا نَجْدٍ متى هجتِ من نجْدِ ... لقد زادنى مَسْراكِ وَجْدًا على وَجْدِ
وقد زعموا أن المحبَّ إذا دَنا ... يَمَلّ وأن النَّأْىَ يَشْفِى من الوَجْدِ
بكلٍّ تداوينا فلم يُشْفَ ما بنا ... على أنَّ قربَ الدار خيرٌ من البُعْدِ

والشعر ليزيد بن الطَّثْرِيَّة النجدى ، وفيه تغنى دَحْمان فى العصر الأموى ثم تغنى فيه المغنون العباسيون من أمثال إبراهيم الموصلى والهشامى ومحمد بن بُسْخُنَّر .

وعلى هذا النحو كان الغناء فى العصر العباسى الأول يتيح لكثير من الأغانى الأموية أن تظل باقية بواسطة الغناء الذى صحبها ، ثم بواسطة الغناء العباسى الحديث ،

وكأنه عمل بدوره — كما مر بنا فى غير هذا الموضع — على نشر شعر الغناء الأموى واستمراره حيًّا متداولا على الألسنة . وبنفس الصورة عمل على نشر كثير من أشعار الغزل العباسى : وهى الضرب الثانى الذى كان يتغنى فيه — كما أشرنا إلى ذلك — إبراهيم الموصلى ، ومنه :

نزفَ البكاءُ دموعَ عينك فاستعِرْ عَيْناً لغيرك دَمْعُها مِدْرارُ
من ذا يُعيرك عينَه تبكى بها أرأيتَ عَيْنًا للبُكاء تُعَارُ

والشعر للعباس بن الأحنف تغنىَّ فيه أولا ابن جامع ، وعارضه إبراهيم الموصلى فصنع فيه لحنًا ، غير أنه لم يلحق ابن جامع ولا قاربه فى لحنه . ومن هذا الضرب :

إذا سَرَّها أمرٌ وفيه مَساءتى قضيْتُ لها فيما تُريد على نفْسِى
وما مَرَّ يومٌ أرتجى فيه راحةً فأذكرَه إلا بكيتُ على أمبس

والشعر لأبى حفص الشَّطْرَنجِىّ الشاعر العباسى المعروف ، وفيه غنَّى إبراهيم الموصلى ، وبه كان يتغنَّى الجوارى فى بيت آل الفضل بن الربيع وزيرهرون الرشيد . ومن هذا الضرب :

تقول لأتْرابٍ لها وهْى تمْترِى دموعاً على الخدَّين من شدَّة الوَجْدِ
أكلُّ فتـــاة لا محالةَ نازلٌ بها مثلُ ما بى أم بُلِيتُ به وَحْدِى
بَرانى له حُبٌّ تعلَّق بالحشَا فلم يُبْقِ من جسمى سوى العظم والجلد
وجدتُ الهوى حُلْواً لذيذاً بَدِيئُهُ وآخره مرٌّ لصاحبه مُرْدِى

تمترى : تستدر . والشعر لصبية أعرابية ، تغنَّت فى قصر هرون الرشيد ، وسمعه منها إبراهيم الموصلى ، وتغنى فيه للرشيد هو وابنه إسحق . ومما ابتدأه إبراهيم وغيره من مغنى العصر العباسى الأول :

بكيتُ نعم بكيتُ وكلُّ إلفٍ إذا بانتْ قرينتُه بَكاهَا
وما فارقتُ لُبْنى عن تَقالٍ ولكنْ شِقْوَةٌ بلغتْ مَداها

والتقالى : البغض . والشعر لقيس بن ذريح . وقد تغنى فيه إبراهيم وابن جامع ويحيى المكى . وأنشدناه لنشير إلى أن الغناء فى العصر العباسى الأول لم يعمل فقط على إذاعة أغان قديمة كما مر بنا ، ولا على إذاعة أشعار عباسية ملحَّنة فحسب ، بل عمل على إذاعة أشعار قديمة كثيرة لم يسبق للمغنين أن لحنوها فى العصر الأموى ؛ بل لحنها العباسيون ابتداء . ومن يرجع إلى ترجمة ابن جامع فى كتاب الأغانى ، وهو ثالث ثلاثة كانوا كبار المغنين فى عصره كما أسلفنا فسيراه يتغنى للأعشى وعبيد ابن الأبْرص من الجاهليين ولنصيب ومكين العذرى وابن أبى ربيعة ويزيد بن مفرِّغ والعَرْجىّ من الأمويين وللعباس بن الأحنف وأبى حفص الشَّطْرَنْجىّ وعمرو الوَرّاق من معاصريه العباسيين . وواضح أن كثرة من تغنى لهم كانوا من القدماء ، وأشعارهم تتردد بين المديح والفخر والرثاء والغزل . وهو ما نريد أن نلفت إليه ، فإن الغناء فى العصرين : الأموى والعباسى الأول لم يعمل على نشر أشعار الغزل والحب وحدها ، بل عمل أيضا على نشر أشعار جميع الأغراض التى نظم فيها القدماء والمحدثون المعاصرون ، وإن كان يلاحظ أن أشعار الحب والغزل هى التى كانت أكثر دورانا على ألسنة المغنين والمغنيات ، ومن طريف ما تغنى فيه ابن جامع لعمرو الورّاق :

فلو كان لى قلبان عشتُ بواحدٍ ... وخلَّفْتُ قلْبا فى هواكِ يعذَّبُ

ولكنما أحْيَا بقلبٍ مروَّع ... فلا العَيْشُ يَصْفُو لى ولا الموت يَقْرُبُ

تعلَّمتُ أسبابَ الرِّضا خوفَ هجرها ... وعَلَّمها حُبِّى لها كيف تَغْضب

وظاهرة ثانية عند ابن جامع ، هى أنه يذكر إزاء بعض الأغانى التى تغنَّى بها أنه أخذها عن بعض الجوارى فى مكة أو فى اليمن . والأغانى يذكر أن كثيرات من الجوارى المغنيات فى بغداد كن يرحلن عنها مع النخاسين إلى خراسان أو إلى الشام أو إلى مصر ، وبذلك كن ينشرن شعر الغناء فى الأقاليم الإسلامية . وفى كتاب الأغانى نصوص مختلفة تدل على أن العامة لم تكن تحفظ الأغانى التى يغنى فيها كبار المغنين والمغنيات فى العصر وتتداولها فحسب ، بل كانت أيضا تغنيها بنفس اللحن الذى وضعه لها المغنى الكبير على نحو ما يُرْوَى عن إسحق الموصلى المغنى المشهور ، فإنه فوجئ ذات يوم بخبَّاز — كما يحكى أبو الفرج — يغنى له أغنية

كان شحيحا بها ، وهى تمضى على هذه الصورة :

بِدَيْـــر القـــائم الأَقْصَـــى غَـــزَالٌ شَفَّنِـــى أَحْـــوَى
بَرَى حُبِّى لــــه جِسْمِى وما يــــدرى بمـــا أَلْقَى
وأخفى حُبَّـــه جَهْـــدِى ولا والله مــــا يَخْـــفَى

ودير القائم الأقصى : موضع على شاطئ الفرات . وكان إسحق يَضنّ بالأغنية على المغنين أن يأخذوها عنه ، فلما وجد الخباز قد أخذها بحذافير نغمها وألحانها لم يعد يَضنُّ بها . ويروى أبو الفرج أيضا عنه أنه قال : ما اغتممت بشىء قط مثل ما اغتممت بصوت مليح صنعته فى هذه الأبيات :

كان لى قلـــبٌ أَعيشُ بــــهِ فاكتـــوى بالنـــار فاحترَقا
أنــــا لم أُرْزَقْ محبَّتهــــا إنما للعبـــد مــــا رُزِقا
مَنْ يكنْ ماذاق طعمَ رَدًى ذاقه ــ لا شكَّ ــ إن عَشِقا

والردى : الهلاك . يقول إسحق : وتصادف أنى حين كنت أصنعه جعلت أردّده فى جناح لى سَحَراً ، فمرَّ بى شخص من العامة ، فسمعه فأخذه ، وأنا لا أدرى . وبكَّرت من غَد إلى المعتصم لأغنيه به ، فإذا أنا بحلْوانىٍّ يغنى ــ فى أثناء صُنْعه الحلوى ــ اللحن بعينه ، وتحيَّرت ، وقلت له : يا فتى ! ممن سمعت هذا الصوت ، فلم يجبنى ، فقدَّرت أنه مرَّ بى وأنا أصنعه وأردّده ، وهو لا يعرفنى ، فسمعه ، وأخذه . وهو خبر له دلالة بعيدة على سرعة شيوع الأغانى وانتشارها فى الناس ، فهذه أغنية أخذت فى الانتشار قبل أن يغنيها صاحبها فى المكان الذى أعدّها له ، وكان قصرَ الخلافة ، فما بالنا إذن بما كان يُغَنَّى فى النوادى ودور اللهو والمتنزهات ؟ إنه سرعان ما كان يشيع وينتشر على ألسنة العامة .

وكثرت حينئذ الجوارى المغنيات ، وكانت الجارية إذا أتقنت الغناء بيعت بثمن مرتفع جدًّا ، مما جعل بعض كبار المغنين يقبلون على تعليم الجوارى فن الغناء ، على نحو ما يُروَى عن إبراهيم الموصلى ، إذ رأى شخص يوما بداره ثمانين جارية يتعلمن فن الغناء والطرب ، وكأنما كانت داره مدرسة كبيرة لتخريج المغنيات . ويخيل إلى الإنسان أنه لم يخل بيت لأحد من السراة فى بغداد

والبصرة والكوفة من جارية تشيع الطرب والغناء والمرح فى أركانه ، وكان من لا يستطيع شراء جارية مغنية استأجر إحداهن من مقيِّن أو من صاحبة جوار لتغنيه فى بعض الليالى ، واشتهرت بذلك فى الكوفة جارية تسمى « بربر » ولمطيع بن إياس غزل كثير فى جواريها . ولم تكن هناك مغنية متقنة إلا وتحفظ مئات الأصوات أو الأغانى وتؤديها أداء متقناً حسنًا ، ويقول الجاحظ فى رسالته الخاصة بالقيان إن الحاذقة منهن كانت تروى أربعة آلاف أغنية ، فصاعداً ، والأغنية تتفاوت من بيتين إلى أربعة أبيات ، وعدد ما يدخل فى ذلك من الشعر ، إذا ضُرب بعضه ببعض — كما يقول — عشرة آلاف بيت . ويقال إن « بذلا » المغنية غنت عشرات المئات من الأغانى كما يقال إنها ألفت فى الأغانى أو الأصوات كما كانوا يسمونها كتابا يشتمل على اثنى عشر ألف صوت منسوبة إلى أصحابها . ولم تدع الجوارى فى العصر الأشعار عن طريق الأغانى وحدها فقد كانت تُكْتَبُ على ثيابهن وعصائبهن وأكمامهن ومراوحهن ، يكتبها التجار والبزّازون جلبا لرواجها من مثل :

مالى رميتُ فلم تُصِبْكَ سِهامى ورميتَنى فأَصبتَنى يا رامى

ومثل :

أفلتُّ من حور الجِنانِ وخُلِقْتُ فتنةَ مَنْ يرانى

ويقال إن البيتين كُتبا على عصابتين . وكانوا أيضاً يكثرون من كتابة أشعار الغزل والحب على البُسط والسجاجيد ، وحدَّث شخص أنه رأى على دَوْر بساط الأبيات التالية لربيعة الرَّقى الذى مرَّ بنا ذكره :

وتزعم أنى قد تبدلت خُلَّةً سواها وهذا الباطلُ المتقوَّلُ
لحَا اللهُ مَنْ باع الصديقَ بغيره فقالت : نعم حاشاك إن كنت تفعلُ
ستقطع إنسانا إذا ما قطعتَنى يحبُّكَ فانظر بعده مَنْ تبدَّل

ومعنى ذلك أنه تعاونت وسائل كثيرة فى العصر على دوران شعر الحب والغزل خاصة وذيوعه على الألسنة . ومما يدل بوضوح على شيوع شعر الغزل والحب وبعد تأثيره فى نفوس الشباب أن نجد وعاظ البصرة يفزعون من شعر بشار — وكان شعره

سيّارا يتناشده الناس كما يقول معاصروه – حين وجدوه يصدر عن الغريزة النوعية في غزله غير متأثم ولا متحرج في مثل قوله :

لا يُؤْيسنَّك من مخبَّأةٍ قــولٌ تغلِّظــه وإن جَرَحَا
عُسْرُ النساءِ إلى مياسرةٍ والصَّعْبُ يمكن بعد ما جمَحا

وإنما فزعوا لأنهم رأوا فيه خطراً أيَّ خطر ، إذ كان شباب البصرة وجواريها من المغنيات والمغنين يردّدون هذا الغزل المتهتِّك ويتناشدونه . وكان يضيف إلى ذلك زندقة وإلحاداً في الدين . فاشتد هتافهم به ، ولكنه لم يَرْعَوِ ولم يزدجر ، بل مضى يدعو إلى اجتناء خطيئات الحب النوعيّ وآثامه ، دون أن يُعير الدين الحنيف والخلق القويم والعرف والتقاليد الإسلامية أي التفات فالحياة في رأيه الفاسد متاع جسدي ولذات وآثام :

قالوا حرامٌ تلاقينا فقلتُ لهم ما في التلاقي ولا في قُبْلةٍ حَرَجُ
مَنْ راقب الناسَ لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتكُ اللَّهِجُ

وتمادى في مثل هذا الغزل الخليع الماجن ، واشتدخوف وعاظ البصرة وأهلها على مدينتهم من شيوعه على ألسنة الشباب والجواري ، فرفعوا أمره إلى المهدى قائلين إنه يُغْوِى النساء والشباب بغزله الفاضح ؛ فأمره أن يكفَّ عن ذلك ، وهدّده وتوعده ؛ واضطُرَّ بشار أن يكف على مضض. وفى ذلك ما يصور بوضوح التواصل الوثيق بين شعر الغزل والحب حينئذ وبين الشعب رجاله ونسائه .

وجوانب كثيرة فى هذا الغزل توضح الطوابع الشعبية فيه ، من أهمها ليونة عباراته وسهولة ألفاظه ، حتى كأنما كان الشعراء يرون أن يكون بنفس اللغة اليومية ، حتى يتسع تأثيره فى الناس وإعجابهم به . وربما كان من دوافعهم فى ذلك أنهم كانوا يتغزلون غالبًا فى الجوارى المغنيات ، وكن لا يعرفن البداوة ولا الألفاظ الغريبة ؛ فكان طبيعيًّا أن لا يغربوا عليهن فى لفظ ولا صياغة وأن يختاروا لهن لغة سهلة بسيطة تمس قلوبهن برفق وبدون أى حجاب ، من مثل قول أبى العتاهية :

بَسطتُ كَفِّى نحوكم سائلا ماذا تردّون على الســائل

إن لم تُنيلوه فقولوا له قَوْلاً جميلا بـدلَ النائـل
أو كنتمُ العامَ على عُسْرَةٍ وَيْلِي فَمَنُّـوهُ إلى قـابلِ

ويقول ابن المعتز تعليقاً على هذه الأبيات : « لهذا الشعر من قلوب النساء موقع الزلال البارد من الظمآن لرقته » . وهى رقة شاعت فى الغزل حينئذ ، وشاع معها كثير من العذوبة والنعومة فيه ، مما أعدَّ بقوة لجريانه على جميع الألسنة . وتشيع فيه الأوزان المجزوءة والقصيرة ، وكأنما اصطنعها الشعراء لغايتين : أن يمكّنوا له من سرعة الحفظ والانتشار وأن يتيحوا للمغنين والمغنيات فيه ما يشاءون من الجهر بالألفاظ والهمس بها حسب حاجاتهم الغنائية . ودفع ذلك الشعراء إلى أن يكثروا فى أوزانهم من الزحافات والعلل ، وهى كثرة أدتهم إلى أن يكتشفوا بعض أوزان جديدة لم يعرفها أسلافهم ويصوغوا عليها بعض غزلهم ، على نحو ما نعرف عن ظهور وزن المقتضب حينئذ ، ولأبى نواس فيه مقطوعة طريفة يسهّلها بقوله :

حامـل الهـوى تَعِبُ يستخفُّـه الطَّـرَبُ
إن بكى يحقُّ لـه ليس مـا بـه لعِبُ

وواضح أنه وزن خفيف كأنه النسيم لطفاً ورقة . وكثيرون حول أبى نواس وأبى العتاهية كانوا يحسنون نظم هذا الغزل الرقيق ، الذى كان يقبل المغنون والمغنيات على التغنى به على آلاتهم الموسيقية ، كما كان يقبل الناس جميعاً على روايته فى مجالسهم ونواديهم لما يمثّل من الرقة المتناهية ودقة الحس ورهافة الشعور .

ومن موضوعات الشعر التى كانت تدور فى طبقة — لعلها كانت خاصة — من طبقات الشعب موضوع الخمر أو الخمريات . وقد يبدو أنه موضوع فردى ولكن من المحقق أن من كانوا ينظمون فيه ، وإن كانوا أفراداً ، فقد كانوا يعبرون عن طبقة غير قليلة من معاصريهم ، كان بعضها يعاقر الخمر والإثم لأنه يريد أن يهرب من الحياة فى عصره وشرها ونكدها فلا يجد إلا الخمر يغرق فيها همومه ، وكان بعضها زنديقاً ملحداً فهو يعاقرها ثورة على الدين الحنيف ، وكان بعضها شعوبيا عنصريًّا ، فهو يعاقرها ثورة على العرب ، وكان بعضها متحلل الأخلاق ، فهو يعاقرها استهتاراً وعبثاً فى غير تحفظ ولا احتياط .

وتقترن الخمر بالغناء منذ أوائل العصر فى أماكن كثيرة ، فقد كان كثير من الناس يختلفون إلى دور أصحاب القيان للشراب والسماع ، وبالمثل كانوا يختلفون إلى البساتين المملوءة بالحانات فى ضواحى بغداد وعلى مشارف نهر دجلة فى الشمال والجنوب ، ويُرْوَى أن أبان بن عبد الحميد عكف على الشراب فى مطالع شبابه عكوفًا جعل أباه يطلب إليه أن يخرج إلى بعض البساتين يمضى فيها وقتًا ، بعيداً عن حىّ الكرخ ببغداد وحاناته ، علّه يسلو الإكباب على الخمر ، وغاب عنه طويلا ، وفوجئ بابنه يكتب إليه :

يا أبى لا تَرْثِ لى من غَيْبَتِى ... أنا فى خيرٍ ولهـوٍ ودَعَـهْ
ومعى فى كل يومٍ مُسْمِعٌ ... حاذقٌ يُطْرِبنى أو مُسْمِعه
ونَدامى كمصابيح الدُّجَى ... كلُّهم يأْخذ كأْساً مُتْرَعَـه

فالبساتين كانت تكتظ بالحانات ، وكان الشباب الماجن يجد فيها مأربه من الخمر والسماع من بعض المغنين والمغنيات . وكانت تتناثر فى ضواحى بغداد والكوفة وغيرهما من مدن العراق وعلى ضفاف دجلة والفرات الأديرة ، وكان بها قاعات كبيرة للشراب ، ويكثر الشعراء من الحديث عن خمورها ، حتى لتؤلّف فى ذلك كتب مستقلة مثل كتاب الديارات للشابشتى . وكانت هناك أيام أعياد مسيحية ومجوسية على مدار السنة يخرج فيها الناس للهو ، كما يخرجون للشراب والسماع . وكانت دور الشعراء والمغنين تتحول ليالى كثيرة إلى مقاصف يتجمعون فيها للسكر والمرح حتى الصباح ، على نحو ما هو معروف عن جماعة مطيع بن إياس ووالبة بن الحباب ، وكانوا يدمنون معاقرة الصهباء ، ويعكفون على شربها أياماً متوالية متحررين من كل خلق وكل عرف وكل دين ، وفى ذلك يقول مطيع :

اخْلَعْ عِذارك فى الهَوَى ... واشْرَبْ معتَّقـةَ الدِّنانِ
وصِـلِ القبيحَ مجاهـراً ... فالعيشُ فى وَصْـل القِيـان
لا يلهينَّك غـيرُ مـا ... تَهْوَى فإن العمـرَ فـان

وقد ترجم أبو الفرج ترجمات طويلة لمطيع ووالبة وغيرهما من أصحاب المجون الكثيرين ، وأنشد الخمريات التى نظموها أو كثيراً منها أو قل أشهرها ، وهى التى

تغنّى فيها المغنون والمغنيات ، وفى أكثر الأحوال تختلط الخمرية بالغزل ، وكثيراً ما يكون غزلا ماجنا . ومما يدل أكبر الدلالة على شيوع شعر الخمريات على الألسنة أن أكبر من تغنى به فى العصر ، وهو أبو نواس ، أصبح شخصية شعبية تدور على ألسنة الناس منذ عصره إلى اليوم . وهو يُعَدُّ أستاذ فن الخمريات سواء من حيث كمية ما نظم أو من حيث كيفيته ، فقد عاش يتغنى بالخمر مجاهراً بالمجون والفسق ، وكأنما وُجد فى العصر ليحمل ذنوبه وجميع آثامه . وكانت له ملكة عقلية خصبة استطاع أن ينوع بها تنويعاً واسعاً فى معانى الخمريات ، حتى لكأنما يستمد من كنز سيال لا ينفد ما فيه ، وهو القائل مصوراً لعكوفه على الخمر والسماع صباح مساء :

إنما العيش سماعٌ ومُدامٌ ونِدامُ
فإذا فاتك هذا فعلى الدُّنْيا سلام

وكانت دنياه الخمر وأكبَّ على كئوسها المعتَّقة ينهل منها ظامئا لا يرتوى أبداً ، مقدماً لها من أشعاره وخمرياته تراتيل تصور عبادته لها ، فهى دينه ومعبوده الذى يتمنى لو اتسع سلطانه فشمل الناس جميعًا ، حتى لا يبقى محزون إلا أحس الفرح والابتهاج ولا شقىٌّ تعس إلا أحس الهناءة والسعادة كما يقول :

دَعْ عنك لومى فإن اللَّوْمَ إغْرَاءُ ... وداونى بالتى كانت هى الداءُ
صفراءُ لا تنزل الأَحزانُ ساحتَها ... لو مسَّها حَجرٌ مسَّتْه سَرَّاء

حتى الجماد لو مسَّته دبت فيه الحياة ، واكتظَّ بمشاعر السرور والفرح ، فهى متعة الدنيا التى تملأ قلبه غبطة وراحة وابتهاجًا . وكان يمزجها بالغزل أحيانًا وكأنما عاش قلبه موزعاً بين الخمر والحب ، نصفه لكل منهما ، بل لقد كان ينقسم قلبه أثلاثاً : ثلثاً للحب وثلثين للخمر ، بل نحن نبالغ فقد استغرقته الخمر ، فهى معبوده ، ومع ذلك كان يعرف كيف يجمع بينها وبين المرأة فى صور بديعة ، من مثل قوله :

الخمرُ يا قوتةٌ والكأس لؤلؤةٌ ... فى كفِّ جاريةٍ ممشوقةِ القدِّ
تسقيك من يدها خَمْراً ومن طَرْفِها ... خمراً فما لك من سُكْرين من بُدِّ

وقلما وُجد شخص من عصره إلى عصرنا إلا وهو يحفظ بعض أشعاره فى الخمر أو فى الغزل أو فيهما معاً ، وشعره بذلك يعد بحق شعراً شعبيًّا ، ولذلك لم يكن غريباً أن يضعه من ألفوا كتاب ألف ليلة وليلة بين الشخصيات الشعبية التى رسموها فى كتابهم ، ومعروف أنه كتاب شعبى خالص .

ولم يكن شعر الزهد أقل انتشاراً على الألسنة من شعر الخمر والمجون ، بل من المؤكد أنه كان أكثر منه شيوعًا ، فإن الكثرة من الشعب كانت تعيش فى ضيق وضنك ، وكان غير قليل منها يحيا حياة كلها شظف وعناء لا يُطاق ، وكانوا جميعا ينقبضون عن الدنيا وملذاتها ، وكانت تكتظ بهم حلقات الوعاظ فى المساجد ، يستمعون إلى وعظهم وما يُبدئون ويعيدون فيه من أن الدنيا متاع زائل وأن الناس عما قليل راحلون ، والسعيد من يغتنم العمل فى العاجلة للتزود به فى الآخرة . وكثير من هؤلاء الوعاظ كانوا يأخذون أنفسهم بحياة زاهدة شديدة الزهد ، ونفر منهم كانت تُعرَض عليه بعض الوظائف ، فيأباها خوفا على دينه ، وتبعهم كثيرون من أفراد الشعب يعيشون مثلهم للنسك والتبتل والانصراف عن كل متاع دنيوى . ومن هنا أخذت تعم موجة واسعة من الزهد ، وقصر غير شاعر حياته عليها مثل عبد الله بن المبارك ، ومثل محمود الورّاق وله أشعار كثيرة يدعو فيها إلى طاعة الله وتقواه والمبادرة إلى العمل الصالح مع الرضا بقضاء الله ومع التوكل عليه حق التوكل ومع القناعة والإقلاع عن طلب المال ، فالغنى غنى النفس ، وفى ذلك يقول :

مَنْ كان ذا مالٍ كثير ولم يَقْنَعْ فَذَاك الموسِرُ المُعْسِرُ
وكلُّ مَنْ كان قَنوعاً وإنْ كان مُقِلاًّ فهو المُكْثِرُ
الفقرُ فى النَّفْس وفيها الغِنى وفى غِنى النَّفْسِ الغِنَى الأَكْبَرُ

ويصور جشعَ فقيرِ النفس وأنه دائما فقير مهما ادّخر من الدراهم والدنانير التى تفتنه عن دينه ، فالدرهم نحلته والدينار ملته ، استأثرا بكل ما فيه من هوى وعاطفة . وتبًّا للغِنى الذى يسرق الإنسان ويستأسره ، ومرحبا بالفقر وعيشة الزهد الهنيئة . ويدعو دعوة حارة إلى الصبر على فواجع الزمان وكوارثه ، كما يدعو إلى العفو عند المقدرة والصفح الجميل عند الإساءة . وكان شعر محمود فى الزهد يدور على جميع الألسنة ، ومثله شعر أبى العتاهية ، وكان قد قضى شطراً كبيراً من حياته

ماجناً ممعناً فى المجون ، ثم انقلب زاهداً ممعناً فى الزهد ، ولبس الصوف زيَّ الزهاد ، وظل على ذلك نحو ثلاثين عاما يتحدث عن الموت والفناء ، ناعيًا الحياة إلى أهلها ، فالأجل قصير والمنايا بالمرصاد ، وليس هناك إلا العدم ، وحرى بالإنسان أن يفقه حياته وحقائقها الواقعة ويعيش مكتئباً محزوناً ، فالحياة إنما هى آلام تخنق الأنفاس ، وعما قليل سكرات الموت وآلامه ، يستوى فى ذلك المريض وطبيبه ، بل قد يحيا المريض ويموت الطبيب :

وقبلك داوى الطَّبِيبُ المريضَ ... فعاش المريضُ ومات الطبيبُ

ولا يزال يردِّد الحديث عن الموت والقبور والبعث والنشور ، متحولا فى كثير من زهدياته إلى ما يشبه واعظًا . وكثيراً ما يستضىء فى وعظه بآيات الذكر الحكيم والأحاديث النبوية ، وكثيراً ما يضمِّن مواعظه أدعية وابتهالات لربه . ومما يدل دلالة واضحة على شيوع أشعاره الزاهدة بين أفراد الشعب وأشعار أمثاله من الزهاد لعصره ما يُرْوَى من أن الرشيد كان يتنزَّه فى سفينة بدجلة ، فإذا الملاحون فى أثناء مسيرته بالسفينة يتغنون بقول أبى العتاهية فى الموت والفناء ، وأن كل إنسان إلى زوال وعدم ، مصير منتظر لجميع الناس لا مفر منه ولا ملجأ :

كيف إصلاحُ قلوبٍ ... إنما هنَّ قُروحُ
سيصير المرءُ يوما ... جَسَداً ما فيه روحُ
بين عَيْنَىْ كلِّ حَىٍّ ... عَلَمُ الموت يلوحُ
نُحْ على نفسك يامسْـ ... ـكين إن كنتَ تنوح
لتموتنَّ وإن عُمِّـ ... ـرْتَ ما عُمِّر نوحُ

وجعل الرشيد يستمع إليهم ويبكى وينتحب . وفى هذا الخبر ما يصوِّر كيف كان شعر الزهد حينئذ يشيع فى الناس وأنه كان على حظ كبير من الشعبية ، وهى لا تلاحظ من ناحية مضمونه فحسب ، بل تلاحظ أيضاً فى لغته ، إذ كانت تقترب قرباً شديداً من لغة الحياة اليومية فى بغداد وغير بغداد ، حتى تمس قلوب الناس بدون حجاب من غرابة أو تعقيد . وكان أبو العتاهية يضع ذلك نصب عينيه قائلا : « الصواب لقائل الشعر أن تكون ألفاظه مما لا يخفى على جمهور الناس مثل شعرى ولاسيما الأشعار التى

فى الزهد حتى تفهمها العامة فى يسر دون أى صعوبة . ويلاحظ أنه لم يطلب السهولة والوضوح فى شعر الزهد وحده بل طلبهما فى كل شعر ، وكأن ذلك كان مطلباً من مطالب العصر أن يتلاءم الشعر مع لغة جمهور الناس . ويدل بقوة على رواج شعر الزهد فى العصر أنه قلما يخلو ديوان شاعر من أشعار فيه ، حتى أبو نواس الماجن نجد له أشعاراً زاهدة كثيرة ، وكان منها ما يدور دوراناً واسعاً على ألسنة الناس ، حتى غدا وكأنه من كبار الزهاد فى العصر ، إذ كانت ملكاته من القوة والخصب بحيث كاد يتفوق على بعض الزهاد فى تعبيره عن معانى الزهد ، حتى لتجرى له أبيات زهدية بين الناس مجرى الأمثال على شاكلة قوله :

أرى كلَّ حَيٍّ هالكًا وابنَ هالكٍ ... وذا نسبٍ فى الهالكين عريقِ

إذا امتحَنَ الدنيا لبيبٌ تكشَّفَتْ ... له عن عدوٍّ فى ثياب صديق

وكأنما كان يلتقط أنفاسه فى أثناء مجونه ، فيفكر فى الدنيا وفى مصيره ، وتفد عليه أبيات من حين إلى حين ينغّص فيها إلى الناس التعلق بالدنيا ومتاعها الفانى ، مصوراً ما ينتظرهم من الموت الذى سيقضى عليهم ليلا أو نهاراً ، كما قضى على آبائهم . وكأنما النسب الذى يجمع بين الآباء والأبناء ليس ما منحوه لهم من الوجود المشترك الذى تلقوه عنهم ، وإنما ما منحوه لهم من الموت والهلاك الذى يُنشِب فيهم جميعاً أظفاره .

ومن المؤكد أن الطبقات البائسة فى العصر كانت أكثر طبقاته عدداً ، وكانت تكدح وتشقى وتتصبَّب عرقًا لينعم الخلفاء والوزراء وعلية القوم وكبار التجار والإقطاعيون بالحياة الرغدة والعيش الناعم ، غير مفكرين فى جوع جائع ولا فى عُرْى عار ، بينما تتجرع الطبقة الفقيرة التعسة آلاماً ثقالا وأهوالا طوالا ، وكأنما عميت الأبصار وصمَّت الأسماع ، فلا بصير ولا سميع ولا من يطعم جائعًا أو يكسو عاريًا أو يروى ظامئًا . وكان من أبناء هذه الطبقة من رُزق موهبة الشعر ، فمضى يصور حرمانها وعُرْيها وجوعها وظمأها ، شاعراً بما يصطلى به أفرادها من تعاسة وبؤس شديد . ومن أهم من عُنوا بذلك أبو فرعون الساسى ، وكان البؤس — على ما يبدو — ينهك حياته ويكلّفه هو وأسرته من الجوع والعرى فى ليالى الشتاء الباردة ما لا يستطيعون احتماله ، ولا منقذ ولا معين ، وله يصور ذلك تصويراً دقيقاً :

وصِبْيَةٍ مثـل صِغار الذَّرِّ   جاءهمُ البَرْدُ وهم بِشـرٍّ
بغير قُمْصٍ وبغـير أُزْرِ   تراهمُ بعـد صلاة العصر
وبعضهم ملتصقٌ بصدرى   وبعضهم ملتصقٌ بظهرى
وبعضهم مُنْحَجِرٌ بحِجْرى   إذا بكوا عَلَّلْتهم بالفجْر
حتى إذا لاح عمودُ الفجر   ولاحت الشمسُ خرجتُ أَسْرِى
عنهم وحَلُّوا بـأُصول الجُدْرِ   كأنهم خنافسٌ فى جُحْرِ

والقطعة بديعة فى تصوير بؤس أبى فرعون وبؤس عياله ، فهم عراة فى زمهرير الشتاء وهم يلتصقون بصدر أبيهم وظهره وحِجْره يطلبون الدفء ، ويطلبون الطعام ويعللهم بالصباح ، حتى إذا لاح خرج على وجهه لا يلوى ، راجيا أن ييسَّر له ما يستطيع أن يردَّ به عنهم شيئاً من الجوع والعرى، وهم فى الحجرة متكوِّمون بجانب جدرانها ، وكأنهم خنافس متكومة فى جُحْر . فيا للهول ويا للفقر ويا للبؤس . ومن الشعراء البؤساء التعساء أبو المخففَّ ، وكان فى عصر المأمون ، واضطرته تعاسته وبؤسه أن يتكفف الناس فى بغداد ، ويسألهم صباحا ومساء رغيفًا أو كِسْرة خبز ، وقلما كان يجد من يمد إليه يد شفقة أو رحمة . وله أشعار مختلفة فى وصف الرغيف ، يتغزل به فيها غزل العاشق المحروم الذى لا يعرف كيف يلقى محبوبه ، وهو يبحث عنه — ويدور — فى شوارع بغداد لا يكل ولا يمل متنقلا من دار إلى دار ومن حانوت إلى حانوت عساه يحظى بمن يحنُّ له ويقدمه إليه ، وفى ذلك يقول :

دَعْ عنـك رسم الديارِ   ودَعْ صِفـات القِفارِ
وعَدِّ عن ذكر قوم   قد أكثروا فى العُقار
وصِفْ رغيفا سَـرِيًّا   حكتْه شمسُ النهـارِ
أَو صورةُ البدر لما اسْ   تتمَّ فى الاستدار
فليس تحسـنُ إلا   فى وصفه أشـعارى

والعقار : الخمر . وأكبر شاعر صوَّر محنة البؤس فى العصر أبو الشَّمَقْمَق ، وكان يحتسى آلامه المرة فى صبر بالغ ، حتى قالوا إنه كان لا يفارق منزله الأيام تلو

الأيام ، وكان لايُرَى إلا فى أطمار بالية ، ويُرْوَى أن بعض أصدقائه دخل عليه داره يوما، فرأى — رأى العين — بؤسه ، فأراد أن يُسَرِّى عنه ، فقال له : أبْشِرْ أبا الشمقمق فإنه رُوِى فى الأحاديث النبوية أن العارين فى الدنيا هم الكاسون يوم القيامة . وله أشعار كثيرة يصور فيها ضيق ذات يده وأنه لا يملك من دنياه إلا حصيرة وبعض ثياب بالية . وكان يأسى أسى شديداً لأبنائه حين يَقْدم العيد، ولا يجدون ما يسدون به رمقهم من الخبز ، فضلا عن التمر والأرز وما تعوّد غيرهم من شرب اللبن الهنىء ، يقول :

ما جمع النـــاسُ لدنياهمُ أنفعَ فى البيت من الخُبْزِ
وقد دنا الفِطرُ وصِبْيانُنا ليسوا بذى تَمْرٍ ولا أُرْز
كانت لهم عَنْزٌ فأُودِى بها وأجدبوا من لبن العَنْز
فلو رأوا خُبْزا على شـــاهقٍ لأسرعوا للخُبْز بـــالقفْز

وينعى دائماً سوء حظه الذى يلازمه فى حِلّه وترحاله ، حتى ليستحيل الدر فى يده زجاجاً ، والماء العذب ملحاً أجاجاً . ويكثر من وصف داره البائسة التى تخلو من الأثاث وتعج بالبراغيث ، ولا طعام هناك ولا خبز ، حتى لتفر الجرذان على وجهها تطلب النجاة إلى موضع يسمى زبالة فى الصحراء ، تجد فيه ما لا تجد فى داره من فتات الطعام . ويبقى معه سنّور أو هِرّ مسكين ، فيأسى لحاله ، ويثوب السنور إلى رشده إذ لا يجد فأرة يقتاتها ، فيفر بدوره مبتهجاً بفراره ، يقول :

لى بُيَيْتٌ من النضارة قفْرٌ ليس فيه إلا النَّوَى والنُّخالهْ
فارقتْه الجُرْذان من قلة الخَيْـ ـير — وطار الذبابُ — نحو زُباله
وأقام السِّنَّوْرُ فيه بشرٍّ يسأل الله ذا العُلا والجَلاله
أن يرى فأرةً فلم ير شيئًا ناكساً رأسه لطول الملاله
ثم ولّى كأنه شيخُ ســوءٍ أخرجوه من مَحْبِسٍ بكفاله

وبيته ليس فيه شىء سوى النوى والنخالة ، فما أبأسه من بيت وأتعسه ! .
وأبو الشَّمَقْمق فى أشعاره إنما يصور — كما قلنا — فقر الطبقة العامة فى بغداد وما

كانت تحتمله من أثقال البؤس لتملأ الطبقة المترفة بطونها ، بينما تعيش هى فى مسغبة وفقر مدقع . وكان أبو الشمقمق يمزج تصويره أحياناً — كما فى هذه القطعة — بالفكاهة ، كأنما يريد أن ينفّس عن أبناء الشعب بعض ماهم فيه من عناء شاق . ويلقانا كثير من الدعابات والفكاهات فى شعر الشعراء ، وكأنما كانوا يريدون أن يخفّفوا عن الشعب بنسيمها الحلو وما ينشر من بعض الغبطة والمسرة ، وكانت غالباً تُنْظم بلغة سهلة خفيفة من نفس اللغة التى يستخدمها الناس فى الحياة اليومية العاملة على نحو ما نرى فى دعابة بشار لجاريته « رَبابة » التى كانت تقوم على إعداد طعامه ، وهى تمضى على هذا النحو :

رَبابَـــةُ رَبَّةُ البَيْتِ تصبُّ الخلَّ فى الزَّيْتِ
لها عَشْـــرُ دَجاجاتٍ وديكٌ حَسَنُ الصَّـــوْتِ

وبادره شخص بقوله : إنهما بيتان يهبطان عن مستواه الفنى فى شعره ، فضحك بشار طويلا ، وقال له يا صاحبى هذان البيتان عند ربابة أجمل من «قفا نبك» لامرئ القيس عندك . وهو يقصد معلقة امرئ القيس التى تستهل بالعبارة المذكورة . ولبشار دعابة أخرى أضحكت الشعب فى بغداد ضحكا متواصلا ، وفيها يذكر حلما رأى فيه حماراً له أدركه الموت ، يشكو من حبه لأتان شكوى مضحكة .

ومما يدل بقوة على أن الشعراء فى هذا العصر كانوا يريدون لأشعارهم أن تشيع فى الشعب وأن تدور على ألسنته أننا نجدهم يكثرون فى أشعارهم من صنع مقطوعات قصيرة ، حتى يمكن حفظها بسرعة وتداولها بين الناس . ويلاحظ ذلك فى الهجاء بوضوح فإننا لم نعد نقرأ قصائده الطويلة التى كنا نقرؤها فى العصر الأموى عند جرير والفرزدق ، بل أصبحنا نقرأ قطعاً قصيرة ، وكأنما تحول الهجاء إلى ما يشبه سهاماً نارية ما تزال تلمع وما يزال الشعراء يترامون بها ويتقاذفونها . ويسرى ذلك من الهجاء إلى موضوعات الشعر الأخرى حتى المديح على نحو ما يلاحظ عند العتّابى شاعر الرشيد والبرامكة ، فقد كان لا يمدح إلا بمقطوعات قصيرة كأنه يراها أكثر التصاقاً بألسنة الشعب ، ولذلك آثرها على القصائد الطويلة . ونفذ الشعراء من خلال ذلك إلى فكرة أن تكون المقطوعة بيتين فقط ، مما جعلهم يستحدثون الرباعيات المشهورة التى شاعت فيما بعد فى الشعر الفارسى ، وهى تتألف من أربعة شطور ،

يشترك أولها وثانيها ورابعها فى قافية واحدة ، أما الشطر الثالث فقد يتخذ نفس القافية وقد لا يتخذها ، ومن أمثلتها البيتان السالفان لبشار فى وصف ربابة ودجاجها ، ومن أمثلتها أيضًا قول أبى العتاهية مزهداً فى الحياة ومتاعها الفانى وأن الجميع يقبرون كما ولدتهم أمهاتهم، لا فرق بين ملك ورعية ولا بين غنى وفقير ، يقول :

المَوتُ بين الخلق مشترَكُ   لا سُوقةٌ يَبْقَى ولا مَلِكُ
ما ضرَّ أصحابَ القليل وما   أغنى عن الأملاك ما ملكوا

وتكثر عند أبى نواس المخمسات ، وهى تتألف من أدوار ، وكل دور يتركب من خمسة شطور ، ويستقل الشطر الخامس فى الدور الأول بقافية تنتظم جميع الشطور الخامسة فى الأدوار التالية ، وكأن هذا الشطر الخامس عمود المخمَّس وقطبه الذى يدور عليه ، ونرى أبا نواس يختم أحد مخمساته بهذا الدور :

يا ليلةً قضيتها خُـلْوَهْ   مرتشفًا من ريقها قَهْوَهْ
تُسْكِرُ مَنْ قد يبتغى سَكْرَه   ظننتها من طِيبها لحظَهْ
يا ليت لا كان لها آخِرْ

ويبدو أنه اختار الشطر الأخير من كلام العامة ، وكأنه كان مقدمة لأصحاب الموشحات فى الأندلس واختتامهم أحيانًا لموشحاتهم بصيغ عامية . ويذكر القدماء أن الأغنية الشعبية المعروفة باسم « المواليا » ظهرت فى هذا العصر على لسان دنانير جارية البرامكة ، غير أن صاحب كتاب النجوم الزاهرة يذكر « مواليا » للعتّابى تمضى على هذا الطراز :

يا ساقيا خُصّنى بما تهواهُ   لا تمزج أقداحى رعاكَ اللهُ
دَعْها صِرْفا فإننى أمزجُها   إذ أشربها بذكر مَنْ أهواهُ

وهذه المواليا دليل على أن أغنيتها لم تبدأ عامية ملحونة ، بل بدأت فصيحة ، وتحولت إلى العامية فى العصور المتأخرة . ولعل فى كل ما أسلفنا ما يدل بوضوح على مدى تمثيل الشعر فى العصر العباسى الأول للطوابع الشعبية المعاصرة له .